# المرأة في مصر

على ممر العصور

من محاضرة للسيدة ايمي مير

نقلها عادل الغضبان

يخيل اليّ ان تاريخ المرأة المصرية هو من أجل التواريخ التي وصلت الينا قيض بشتى أسباب الشجاعة والثقة . ففي مصر لم تكن المرأة موضع استبداد منظم على نقيض ما كانت عليه في بعض بلاد هذا الشرق الجميل الذي كثيراً ما أتهم انهُ يسيء المرأة السعودية ولئن اضطهدت المرأة احياناً في مصر إنّ ذلك كان عرضاً بثت عليه بواعث أجنبية

ليس تاريخ الامم الاّ مجموعة اخلاق كل أمة وعاداتها فالمصري ذكي بطبعه شريف في معاملته نشيط في عمله لا يحفل بما بين الرجل والمرأة من فوارق جسمانية ولا يتخذها ذريعة لاحتقار شريكة حياته وانهُ لعلى حق . ونحن ان شئنا معرفة هذه الفوارق فهاك ما تنص عليه الموسوعة الطبية قالت : الرجل عادة اطول قامة من المرأة وهيكله العظمي أثقل وزناً وقلبه أكبر حجماً ورئتاه أقدر عملاً ودمه اغنى تلاقيف ودمه يختلف عن دمها في مقداره وتركيبه وعلى الجملة فالرجل اقوى من المرأة . ونحن على اتفاق في هذا مع القواعد الطبية ولا اخالكنّ يا حضرات الآنسات الاّ موافقات على ان ما تصبو اليه المرأة والنادر لا يقاس عليه ليس التشبه بالرجل في ساحات النزال او حلقات الملاكمة او ميادين الفروسية وعلى ان الفوارق بينها وبين الرجل قد توجد بين الرجل والرجل دون ان يكون لها دلالة معلومة فكم رأينا من رجال ضعاف البنية مشوّهي الخلق هم في طليعة النوابغ العظام

لما سنّ الله شريعة هذا الكون لم يجعل هذه الفوارق بين الرجل والمرأة أداة فوضى بل أداة توازن طبيعي واجتماعي ولما كان الرجل والمرأة قد خلقا ليتم الواحد الآخر فقد وجب ان يتوافرا على كل تعاون بينهما

اذا عرض الباحث لجميع حلقات التاريخ المصري وجد المرأة دائماً ابداً الى جانب زوجها تشاركه في حياته الى اوسع حدود هذه المشاركة ولقد كان للمرأة المصرية في الزمن القديم

شأن كبير كعامل اجتماعي حتى ان اولادها كانوا ينتسبون اليها وحتى كان لها في الاسر المالكة سلطة التحريم والتحليل وهل من شهادة اعظم أثراً وأقوى دلالة على مجد المرأة من تلك الصور البديعة التي نقشت على نواويس الفراعنة والتي تدل بجلاء ووضوح على الشرف الذي كانت تحف به . ففي معظم هذه النقوش مثلت المرأة جالسة الى جانب زوجها وقد زانتها جمالاً بحالي الزينة وأنواع الحلي وخلال الاكاليل وبريق الجواهر وضميمات الورد وهي تتقبل من اولادها ورعاياها شارات الولاء وتشترك في تقديم الذبائح والقرابين للآلهة وتقوم بالطقوس الدينية التي ترفع للآلهات حتى اذا كانت الأسرة الرابعة قامت المرأة بالشعائر الدينية التي ترفع للآلهة .

من مثل أيتها الآلسات لم تسحرها صورة الملكة ترتيتي فان سحرها في قسماتها وزينتها لا كفاء له وليست زوجة أمنوفيس الرابع هي الوحيدة في ذلك السحر والتأثير فحوالي سنة ٢٤٧٠ قبل المسيح كانت تيزوريس هي المالكة على مصر ثم ملكت في سنة ٢٠٠٠ قبل المسيح سكيموفريس خلفة أخاها امنمحت الرابع ومنذ سنة ١٤٩٣ الى سنة ١٤٨٠ قبل المسيح كانت الحاكمة على مصر حتشبسوت يشاركها في الحكم تحوتميس الثالث زوجها وأخوها ومما يؤثر عن هذه الفرعونة الجليلة الزكية انها كانت تميل الى تشجيع المتفنين والعلماء فضلاً عما اخذت به نفسها من تحسين معايش رعاياها ويقال ان ملوكة بنت زبك هي التي ملكت مصر بعد تلك الحادثة المشهورة من غرق المصريين في البحر الاحمر وأعتقد انكن تذكرن جيداً فصول التوراة التي تخبرنا بان فرعون مصر ووزراءه وجيشه هلكوا في البحر وهم يطاردون البرانيين . وقيل ان النساء اجتمعن وملكن عليهن من بلغت منها ١٦٠ سنة فكانت ملوكة . واول عمل أتت به هذه العجوز انها أمرت بتشييد سور يمتد من شمال البلاد الى جنوبها اي من العريش الى اسوان تماشيه الأقنية وتقوم به مصالح للذخيرة وقد علته أجراس الخطر تدق عند اول إشارة وماتت ملوكة بنت زبك بعد عشرين سنة من ملكها وقد اخذ الحزن على موتها من رعاياها كل مأخذ فبكوها سنة البكاء

اما من تشرفها الاساطير باسم بدور المصرية فيغلب على ظني انها لم تكن الا ساحرة اكتسبت نفوذها من صداقة المجوس لها . واما زوجة فوطيفار التي شغفت بيوسف فيعرفها مؤرخو العرب باسم زليخة وهي بنت ملك من ملوك الرعاة تزوجها كنفير جليس فرعون حتى كانت رميتوفريت زوجة الكاهن الاكبر پيلوزيريس وهو أعظم كهنة طود الحكمة شأناً وكلهم راقدون في مدافن هرموبوليس وهو الذي وصف زوجته فقال : « حبيته هي ملكة السحر عذبة اللفظ نافذة المشورة كل ما عرض على شفتيها يشبه أعمال « ما ت » هي المرأة الكاملة الوافرة النعم على بلدها المبسوطة اليد الفائقة الخير المرددة ما يستحب الجامحة شفقاتها عن المنكر الكبيرة في حبها ».

اما كليوپطرة فاذا لم يخني المقال فانها اول طلبة للمرأة المشئومة في التاريخ ، للمرأة التي تمثلها خير تمثيل

على لوحة الحياة جريتا جاربو ومارلين ديتريش وهي التي لا تترك لمن أحبها مخرجاً سوى الموت على انهُ يجب أن لا ننسى الناس أشياءهم فملكة مصر اليونانية الرومانية كان يشغل قلبها حب وطنها وهو الحب الذي لا يعلو أي حب آخر وليس أحق من الآنسة دريه تون أو سليم بك حسن أو ساي جيرة أولئك العلماء الاعلام في الآثار المصرية ان تدعوهم الى محاضر تكلم عن أولئك النساء العجيبات اللواتي زخر بهنَّ تاريخ مصر القديم ووصل الينا عبقهنَّ عزيزاً ونقد هيأت الى ازدهار حرية المرأة وشخصيتها قرون عدة من الحضارة وأي حضارة تهي الآن منهة الخاطر ترغب في حياة روحية كاملة تنتظرها وتستحقها وهي التي عبر عنها يسوع الناصري وفضلها على مشاغل الدنيا يوم زار مرتا ومريم زيارة حفها البساطة ووسمت احتفال أعظم هيئة قدسية كانت فيها أخت مرتا المثل الحيّ على الحياة الروحية وتبعها في ذلك خليفات فرنيني وهتشبسوت وكليوبطرة فأجبن دعاء المسيح وملأن قصر الحياة قداسة. وحسبنا أن نشير الى بعضهن من مثل القديسة كاترين الجميلة العالمة التي استشهدت حبًّا للدين الجديد والقديسة بانكليتيك الشهيدة والقديسة تيكلا رئيسة دير يضم على ٦٠ راهبة في الطيبه والقديسة بازيليس زوجة القديس جوليان والقديسة دوروثي العذراء بالاسكندرية والقديسة كوميا الشهيدة والقديسة أبولوني والقديسة افروزين والقديسة أسطامي والقديسة افرازي والقديسة مريم المصرية والقديسة توماييد الشهيدة والقديسة تيودورا والقديسة تيودوزي والقديسة مور زوجة القديس تيوتاؤس والقديسة دميانة التي دفنت مع الاربعين عذراء اللواتي حكم عليهنَّ معها وضربت أعناقهنَّ في ضواحي بلقاس وحيثما وجد الهدوء والسكينة شيدت الأديرة للرجال والنساء على السواء فازدهرت المسيحية في أرض القراعنة وكان ازدهار الكنيسة فيها من أسباب مجدها حتى جاء الاسلام واستنقذ العرب ونقلوه الى مصر مشفوعاً بعاداتهم وتقاليدهم ومنها هذا الحجاب الذي أصبح للمرأة رمزاً على حياة منفردة منبتة عن حياة الرجل فأخذ المصريون عنهم لأول وهلة كل ما جاؤوا به شأنهم في ذلك شأن جميع البلاد التي فتحها المسلمون الا انهم كلما ازدادوا تطلقاً بروح الدين نبذوا التقاليد الاجنبية ورجعوا الى تقاليدهم التي ورثوها عن الاجداد

وهنا أيضاً تمتاز المرأة المصرية فهذه السيدة نفيسة التي حجّت الى مكة ثلاثين مرة ونيف وعاشت في تقشف وزهد كان مدعاة عجب معاصريها الاولى عرفوا قداستها فجاؤوا اليها من كل حدب وصوب يلتمسون بركتها حتى ان الامام الشافعي نفسه زارها وطلب اليها وهو منصرف أن تصلي من أجله ولما أدركتهُ الوفاة دعت السيدة نفيسة الى الصلاة على جثمانه والسيدة نفيسة دفنت في منزلها في درب السباع سنة ٢٠٨ هجرية أما ابنة أختها سكينة فقد طلبت على غرار حافضيلة وهدى حتى أن جماعة المؤمنين لما توفاها الله صمموا على أن يدفنوها بالقرب من خالتها وقد فعلوا

وهذه سكينة المشغفة بالأدب المتلئة دارها بالادباء والمتفقهين في عصرها وهم الالى سحر هم دلالها وغنجها وهفت فيهم روح الوحي والالهام فتسابقوا في مضمار البلاغة وكانت هي تستمع اليهم من وراء ستار

كذلك كانت عائشة النبوية بنت جعفر الصادق التي توفيت سنة ١٤٥ هجرية من قديسات الاسلام يحج الى قبرها في الجامع الذي شيد على اسمها في سفح القلعة كثير من الناس

وكانت ست الملك بنت العزيز بالله مشهورة بالذكاء والحكمة حتى ان الشعب المصري لما ثار في وجه اخيها الحاكم بأمر الله توجه اليها لانتخاب ملك آخر فأشارت بالملك الشاب علي ابن الحاكم وكان عمره اذ ذاك اربعة عشر عاماً فملكته وحكمت باسمه مدة اربع سنوات استطاعت في خلالها ان تجري العدل في مجراه وان تكتسب بذلك حب مواطنيها ومات سنة ٤١٥ هجرية

من هؤلاء النساء ايضاً كذلك حدقة الجارية في قصر الملك الناصر ابن قلاوون وكانت على جانب كبير من الذكاء وحب الخير فقد بنت عدداً كبيراً من التكايا والسبل والمدارس فضلاً عن جامع فم الخليج الذي دفنت فيه سنة ٧٣٧ هجرية. وبركة خاوند ام السلطان الاشرف وكانت تقية سخية يلجأ اليها كل بائس ويعتمد عليها كل عليل وقد بنت في سنة ٧٧٠ هجرية عند عودتها من الحج باب زويلة في سفح القلعة وهي المدرسة الكبيرة التي يزار فيها قبرها

اما شجرة الدر زوجة السلطان صلاح الدين فقد يلزمني محاضرة برأسها للتحدث عنها وعن ملكها على مصر الاسلامية مدة ثمانين يوماً فقد كانت سيدة جبلة الملامح ذكية الفؤاد سياسية ثاقبة النظر وطنية تقدح مجالي حبها في القلوب الشرر الذي تقدحه في السماء الشهب الثاقبة

على اننا اذا وجهنا النظر الى القريب من العصور رأينا زينب هانم افندي أصغر بنات محمد علي تبني اكثر من ١٤ جامعاً وتنشىء للفقراء والمراضي الدكر الاوقاف والتكايا وها هي عائشة التيمورية ابنة اسمعيل باشا تيمور الكاتبة الشاعرة التي عني والدها بان يهيىء لها ثقافة عالية وتربية رفيعة فنشأت شاعرة مجيدة لها آثار حسان في العربية والفارسية والتركية وبينما كان العالم الادبي يترقب منها المزيد اذا بالقدر القاسي يختسها في ابنتها توحيدة ولما تبلغ الثامنة عشرة من عمرها فجزعت عليها امها حزناً شديداً مدة سبع سنوات تجردت في خلالها من كل شيء الا من بكائها ونواحها حتى قرحت اجفانها ودميت عيناها ولولا لطف الله والطب لذهب بصرها واول من قرظ ديوان عائشة شاعرة اخرى هي وردة اليازجي الشاعرة الرقيقة سليلة الاسرة اليازجية التي تعهدت اللغة العربية وعملت على نشرها وازدهارها

لئن ذكرت لكن طائفة من الاسماء يستحق كل واحد منها درساً مستفيضاً اني لم اقصد الا ان اتمكن ان مصر في كل عصر وفي كل حالة لم تخل من نساء شيرفن بلادهن ولولا كثرتهن لتبددت لكن اسماءهن فتهن ينشئن سلسلة بطلات متصلة الحلقات منذ فجر التاريخ قد جددت

فيها الحماسة القديمة التي نراها اليوم قد انبعثت في الالباب الاولية الحديثة في اولئك العدائين الذين نقلوا اللهب الرمزي من آتيه الى برلين كما تناقلت المرأة في مختلف العصور رسالتها العالية التي تتناقلها نحن اليوم متتبعات مبادئها القديمة وعمليات شأن أنوثتها الكاملة

المعروف ان الروح تتغلب دائماً على المادة فالقوة الوحشية ان تغلبت على القوى الادبية والفكرية فلوقت قصير والمرأة في هذا الميدان كفء للرجل فهل عليها ان تحذو حذو الرجل في توسيع مداركها والاهتمام بالثقافة والعمل ؟ قد يختشى في اوربا وامريكا ان يبعث لشاط المرأة الى تنافس الجنسين. اما علماء الاجتماع في مصر فلا مخالهم يعبأون بهذا الامر فان مناخ مصر مدعاة الى الكسل والى تجنب كل مجازفة او جهد وهذا ما على المرأة العصرية ان تحاربه وتتغلب عليه

النفس مخلوق حي يحتاج كالجسم الى التغذية والتمرين والنمو وليس الواجب مقتصراً على لزوم حالة راهنة بل على الرفع والتقدم . فعلى المرأة ان ترهف احساسها وتقوي ارادتها وتربي ذكاءها وتعود الثابرة دون اخلال بأنوثتها. ان هذا العصر كثير المطالب فيجب ان تتفق مطامح المرأة وهذه المطالب وكل من لا تستسلم الا الى الدلال والكسل فبشرها بشل ذريع فالمرأة العصرية يجب ان تأنف من ان تكون حيواناً او اداة عبث وهي التي تدعي بمساواتها بالرجل بل عليها ان تكون شريكة الرجل تشاركه في السراء والضراء وتطمح الى نفس الواجبات والحقوق المخولة له وهذا ما ينشد صرح سعادتها وليست سعادتها الا ان تعيش صحيحة الفكر والجسم ساعية قدماً في ميدان الحياة العقلية مدخرة ما استطاعت اليه من ثروة فكرية وأدبية

ليس بخاف عليكن يا حضرات الآنسات اثر السيادة التركية في مصر الحديثة وما كان للعلائق الودية بين كبار البلدين من توطيد ذلك الاثر حتى كانت العادة عند امرائنا واميراتنا ان يقضوا فصلاً طويلاً من السنة في بلاط الخليفة السلطان وهذا ما يفسر لنا لماذا قضت الاميرة فاطمة فاضل عهد شبابها الاول في القسطنطينية فتألق جمالها وسطع ذكاؤها حتى شغف بها الامير مراد ابن اخي السلطان عبد العزيز وود لو يتزوج منها لولا ان هذا الزواج كان مخالفاً لارادة الباب العالي فزوجها من خليل باشا شريف وارسله في بعثة خاصة الى اوربا فلفتت الاميرة اليها الانظار واختلف الى مجلسها كبار القوم للمجين بها وكان من رواد بيوتها بسمارك ودزرائيلي وناپليون . ولما عادت الى مصر لتسكن بها سبقتها اليها شهرتها فأحاطها الخديو عباس حلمي ووزراؤه وعثلو الدول الاجنبية في مصر وكل عظيم في عالم الفكر والفن والسياسة بشتى مظاهر الاعجاب والاحترام . اما هي فكانت تختلط بجماعة خاصة من اصدقائها الحميمين الذين وهبتهم ثقتها وقدروا فيها المرأة الوطنية وكان من بين هؤلاء المصلح الكبير الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وتحي باشا زغلول الرجل القانوني والشيخ عبد الكريم سلمان وعلي

فخري بك المستشار بالاستئناف المختلط وفارس نمر باشا الذي أدلى اليّ باخبار الاميرة ناظلي وحسن حازم باشا كبير التشريفات في البلاط ولاسيما قاسم أمين وسعد زغلول في هذه الدائرة من الاصدقاء الذين احاطوا تلك السيدة العظيمة بشتى معانيهم تحت الفكرة النسوية وما عتمت ان آتت ثمارها فنشر قاسم امين كتابين «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة» وهما الكتابان اللذان عالج فيهما ترقي المرأة المصرية فلم يستقبلا بحماسة والغريب ان النساء انفسهن لم يكنّ اقلّ عداء للمؤلف من غيرهن ولكن امثال هؤلاء يجب ألا يحفل بهن على أن هذين الكتابين ما لبثا أن عني بهما نخبة رجال مصر حتى ممن كان بادأهما العداء من مثل طلعت حرب باشا

اما الاميرة ناظلي فقد استطاعت ان تذوق قبل وفاتها ثمر ما ساعدت على غرسه من انصاف المرأة في تلك الطبقة العالية التي بسطت فيها ظلال تلك الشجرة في تلك الطبقة التي كثيراً ما عُنّفت الأميرة واطلقت عليها لقب الاميرة الثرية الاطوار ومع ذلك فقد كانت حريتها مثالاً يؤثر فطرحت بنات مصطفى باشا فهمي الحجاب وحاولت ان تتأثر بهن زوجة سرهنك باشا وزوجة الدكتور محمود صدقي باشا ولكن الذي بعث على اعتناق هذه الحرية الحديثة هو سعد زغلول باشا لما دنا زوجته الى مشاطرته حياته السياسية فحصل ما كان في الحسبان وحف سعداً جماعة الاعوان والانصار فنفخوا في بوقه وافتتحت أبناء الاسر ولا سيما بيو حرم محمود بك رياض وبيو حرم سلطان باشا وفيه شوهدت تلك الفتاة الجميلة ذات العينين السوداوين هدى سلطان التي كتب لها ان تضطلع بالارث الذي تركتهُ لها الاميرة ناظلي

ولعل السيدة هدى هانم شعراوي تنشر يوماً مذكراتها عن ذلك العهد عهد الشباب الذي هيأها لهذه المهمة العظيمة التي تضطلع بها اليوم والمعروف انها زفت في الثالثة عشرة من عمرها الى ذلك الرجل العظيم والوطني الهمام محمد شعراوي باشا. ومما لاشك فيه ان الحياة مع رجل ذكي حكيم قد صقلت نفسها فما لبثت ان ظهرت مواهبها دون الجنوح الى الزهو والخيلاء والانانية وهي السرية الثرية بل تطلعت دائماً الى المثال الاعلى الى المتع الفكرية فدرست وتثقفت وشغفت بالادب والفن ولسنا ندري اتذبت هدى هانم من محيطها النسوي ام ان حنانها وعطفها على قضية المرأة لا يقدح شرره الا عند رؤيتها كآبة غيرها من النساء . فبعد موت زوجها تخصصت بتحرير المرأة فألفت لذلك لجنة اصلية هي الاتحاد النسائي وتفرع منهُ في السنوات الاخيرة لجنة فرعية باسم فتيات الاتحاد النسائي ثم شيدت مدرسة وافتتحت مشغلاً وستوصفاً وبصنعاً للخزف واعتمت ان تزيد يوماً فيوماً عدد جيشها السلمي الذي يسعى جنوده الى ذلك المثال الاعلى ولسنا الآن أهلاً لان نحكم على ما قامت به حرم شعراوي باشا في تاريخ المرأة المصرية فما يزال العهد حديثاً والدوائر التي أحاطت بأعمالها خفية عنا على أن المعروف المشهور هو فضل هذه السيدة الجليلة الذي يجل عن التحدام والحصر

ها هي المرأة في المعترك تضيق كل ما تحدوها عليه أنوثتها فالمدارس قد خصت بالطالبات المتعطشات الى العلم والعمل وسنسمع يوماً صدى نجاح بعضهن يدوي في أذن الفضاء لحذار أن تنسى الاخريات اللواتي وان كان الدهر لم يسعفهن بنباهة الصيت الا انهن جديرات بالشكر لانهن الضحايا التي قدمت على مذبح سعادة اخواتهن . لقد اشتهرت المرأة المصرية بميلها الى الفنون وعدد من زاول صناعة الادب كبير جداً كالنجوم اللامعات في الافق وها نحن نذكر اشهرهن :

ملك ناصف كانت في طليعة العدد القليل من الفتيات اللاتي قبلن في مدارس الحكومة فلمست بين زميلاتها وتوسمت فيها آمال جسام ولكن الموت اختطفها زهرة نضرة بعد ان تزوجها عبد الستار بك الباسل ونشرت كتابها الذي وضعته باسم باحثة البادية . وأما اشهر من كتب باللغة العربية فهي النابغة مي زيادة التي خطبت وكتبت بخمس لغات او ست ولكنها اجادت باللغة العربية وأشغلت ذكاءها الثاقب بالعلم والادب فأخرجت تآليف كتب في موضوعات مختلفة واحد منها تناولت البحث فيه عن « ملك ناصف » فضلاً عما دبجته من مقالات في الجرائد السيارة وعما القته من محاضرات في الفلسفة والتاريخ والادب في اسلوب خاص بها هو الشعر المنثور . ومما لاشك فيه أن مي زيادة تعد في طليعة شهيرات الشرق فلقد جلاها الله بذكاء متوقد استخدمته في مسائل مختلفة سماً وهي المتعطشة الى العلم والمعرفة الى ترفيع فكرها وعاطفتها وهي المعروفة كذلك بطيبة القلب وثقافتها النادرة . وهي وان كانت من أصل لبناني الا انها عاشت كل حياتها في مصر فهي تنسب الى مصر ولبنان على السواء . ولقد بهرت وهي في ريعان الصبا كل من حف حولها وما شرعت تكتب حتى أتتها الشهرة منقادة اليها فكثر زوارها وغص مجلسها الادبي الذي كان الحديث يتناول فيه بعدة لغات ولا ننسى ان مركز مصر الجغرافي يجعل منها بلداً مختلط السكان فلا عجب اذا رأينا كثيراً من المصريين والمصريات يجدن في التعبير بغير العربية او الفرنسية لغة السياسة التي هي أداة الرقة والاناقة [1]

ارجو اني توصلت الى اقناعكن ان المرأة المصرية وبن لساء الشرق هي التي امتازت بالحكمة حتى في اشد ايامها حلكة وشقاء ليس المقصود بالحكمة هذه التي اظهرتها بساع هذه المحاضرة لم يختكن الصبر فيها بل المقصود بها مناحي الحكمة الباسرة التي تولدها مدارکنا مجتمعة فيقودها او يكبح جماحها العقل القوي الذي يجنبنا كل تفريط وافراط والذي يحدونا على ان لا نحتقر شرائط الطبيعة التي جعلت من المرأة شريكة للرجل تفيض بالدعة والايناس . وفي الختام نقدم لكل من بطلات التاريخ القديم والحديث فرائض اعجابنا واحترامنا فانهن جميعاً اشتركن في تحقيق سعادة المرأة المصرية في هذا العصر . انا بعثنا اليهن اعجاباً صادراً عن اعماق القلب ولئن نحول الى شكر واعتراف بالجميل فما احقهن به

(١) المقتطف : بعد ذكر باحثة البادية وهي توسطت مدام نمر في ذكر طائفة كبيرة من المشتغلات بالآداب والفنون فلم نرأنا بما تقدم لضيق المقام